ألله الذي يعبده المسيحيّون والمسلمون

الأخت روز أبي عاد
دكتوره في لاهوت الكتاب المقدّس

مقدّمة

كم وكم سمعنا عن صداقات مسيحيّة مسلمة لا بل عن زواجات مختلطة بين المسيحيّين والمسلمين، وتبقى المياه تسير في مجاريها طالما لم نتطرّق إلى موضوع العقيدة والدين، إذ عندها سندخل في دراما الانزعاج وسيسود الارتباك والتردّد.

قد يحاول البعض تسليط الأضواء على الأمور المشتركة فيقول إنّنا نجد في الكتاب المقدّس والقرآن أشخاصًا عدّة مشتركين، على سبيل المثال نذكر منهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، ويسوع (عيسى)، ومريم، ولكن، بالحقيقة، فما هو مشترك بين الكتاب المقدّس والقرآن لا يتعدّى إلّا الأسماء، ذلك بأنّ الدور الذي يقوم به هؤلاء الأشخاص لا يتطابق أبدًا في الكتابَين. وتتفاقم المشكلة عندما نصل إلى الله، فيقولون إنّنا نعبد الإله الواحد، وهنا أيضًا لا يتّفق المسيحيّون والمسلمون على أيّ مفهوم لله سوى على أنّه "واحد" في حين أنّ كلّ ما تبقّى لا يوافق البتّة نظرة الديانتين له.

في دراستنا هذه، سنحاول أن نوضّح مفهوم الله في الديانتين المسيحيّة والإسلاميّة، والهدف هو أن نتعرّف على ديانة الآخَر، فنفهم مضمون الكلمات التي يستعملها، ممّا يؤدّي بنا إلى توضيح معنى الألفاظ وأبعادها، فتقرب المسافات ونبني السلام.

مقارنة بين إله المسلمين وإله المسيحيّين

–الإله الواحد والثالوث

يعبد المسلمون إلهًا واحدًا، في حين أنّ المسيحيّين يؤمنون بإله واحد–ثالوث، وهذا الإيمان بالإله الثالوث لا يطعن في العقيدة المسيحيّة بشيء، أمّا بالنسبة إلى المسلمين فعكس ذلك، أنّه يشكّل اختلافًا جسيمًا، ذا علاقة بألوهيّة يسوع التي يرفضونها بقوّة. أن يقول المسيحيّ إنّه يؤمن بالله الواحد، يبقى كلامًا غير وافٍ، إذ إنّ جوهر إلهه هو أب وابن وروح قدس. في هذا السياق يقول البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني إنّه، وبالرغم من إسناد أجمل الأسماء إلى إله القرآن، ولكن في النهاية، يبقى غريبًا عن العالم، إذ هو فقط إله العظمة، دون أن يكون الـ "عمّانوئيل"، "إلهنا معنا"[1].

وهكذا، فالنظرة المسيحيّة إلى الله ليست هي نفسها نظرة الإسلام إليه، ذلك إنّ فكرة الثالوث لدى المسيحيّين ترتبط بفكرة الله المخلّص، والله المحبّة

(1) Cf. Jean Paul II, *Entrez dans l'espérance*, Plon/Mame, 1994, 152.

الذي يقيم عهدًا مع البشريّة. له مخطّط خلاصيّ للجميع، وبه يمكننا أن ندخل في قلبه المفتوح لاستقبال جميع الناس، وهذا أمر مرفوض بالنسبة إلى المسلمين لأنّ الله هو المتسامي والمتعالي؛ إنّه الوليّ الذي يشرف من فوق على كلّ ما سواه؛ إنّه المنفصل بشكل جذريّ عن سائر المخلوقات والذي ينتظر من الإنسان أن يسلّم أمره له، وهذا هو بالفعل معنى لفظة "مسلم".

– الإله الخالق

في حين أنّ المسيحيّ يعترف بأنّ الله خلق الإنسان على صورته كمثاله، يستحيل على المسلم أن يشاطره الرأي لأنّ القرآن يقول: و"ليس كمثله شيء" (٤٢: ١١)، وإلاّ فهو يغيّر الترابط المنطقيّ في إيمانه. قد يعترض المسلم بقوله إنّه جاء في القرآن: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (٥٠: ١٦)، لا بل هناك آية أجمل: "واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه" (٨: ٢٤)؛ وأيضًا: "إذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الداع إذا دعانِ" (٢: ١٨٦). ولكنّ هذه الآيات تفرض علينا أن نطرح السؤال: عن أيّ قُرب يتكلّم القرآن؟ أليس المقصود به الدلالة على معرفة الله لكلّ شيء؟ ومراقبته لمخلوقاته بحيث لا يغفل عنه أيّ شيء، هو العالم بكلّ شيء. ومن ناحية أخرى، تبقى المسافة شاسعة بينه وبين الإنسان إذ "لم يكن له كفوًا أحد" (١١٢: ٤)، و"ليس كمثله شيء" (٤٢: ١١). إذًا، لسنا بصدد القرب العلائقيّ الناتج عن العهد حيث يعطي الله ذاته، حسب كلام يسوع: "وأنا وهبتُ لهم ما وهبتَ لي من المجد ليكونوا واحدًا كما نحن واحد" (يو ١٧: ٢٢)، وأيضًا: "عرّفتهم باسمك وسأعرّفهم به لتكون فيهم المحبّة التي أحببتَني إيّاها وأكون أنا فيهم" (يو ١٧: ٢٦).

في موضوع الله الخالق يقول روجيه أرنلديز: "ليس إله القرآن إله المسيحيّة على الإطلاق"[٢]؛ ويؤكّد الأب فرانسوا فاريون: "ليس ممكنًا حتّى أن نماثل بين الإله الخالق بالنسبة إلى محمد والإله الخالق بالنسبة إلى يسوع المسيح (...).؛ فإله الإسلام ليس هو إله المسيحيّة؛ فالمسلم هو أمام الله، في حين أنّ المسيحي هو في الله"[٣]. وأمام قدرة الله المطلقة، ليس على الإنسان سوى التسليم، لذلك "فالله يعلم وأنتم لا تعلمون"[٤]. وفي مكان آخر نقرأ: "إنّي أعلم ما لا تعلمون"[٥]، ولهذا، في موضوع الخلق، نرى الله في الكتاب المقدّس يعطي الإنسان السلطان ليسمّي جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء (تك ٢: ١٩)، أمّا في القرآن، فالله يعلّم آدم، النبيَّ المسلمَ قبل أن ينزل القرآن، أسماء الحيوانات (٢: ٣١–٣٣). من ناحية أخرى، لا يمكن إبراهيم أن يتشفّع لسدوم (١١: ٧٧ي)، عكس ما يفعله في سفر التكوين (تك ١٨: ١٦ي)، وكأنّ الله لا يتأثّر بالإنسان (٣٩: ٧).

بشكل عامّ، الله في الإسلام هو الوليّ، هو الذي يسود بصورة مطلقة، ويوحي لعبده الاعتراف بالجميل والشكر والعبادة؛ فالوصاية الإلهيّة تفترض تذويب كلّ ما ليس الله[٦].

– إله الوحي

يؤمن المسلمون بالأصل الإلهيّ للقرآن، وبأنّ الله وحده هو كاتبه، ولكنّ المسيحيّين لا يشاطرونهم الرأي، علمًا أنّ كلاً من المسيحيّين والمسلمين يقولون أنّ كتابهم هو كلام الله، ولكن دون أن يكون المفهوم ذاته.

(2) In Annie Laurent, *Vivre avec l'Islam*?, Saint Paul, 1996, 130.

(3) Cf. François Varillon, *Un chrétien devant les grandes religions*, Bayard/Centurion, 1995, 48, 65, 69.

(٤) رج ٢: ٢١٦، ٢٣٢؛ ١٦: ٧٤؛ ٢٤: ١٩.

(٥) رج ٢: ٣٠؛ ٤٨: ٢٧.

(6) Cf. François Jourdan, *Dieu des chrétiens*, *Dieu des musulmans*. *Des repères pour comprendre*, Éditions de l'Œuvre, 2008, 93.

ينتج مفهوم المسلم للوحي من مفهومه للّٰه، إذ إنّ اللّٰه هو مصدر كلّ شيء، وكلّ شيء يرتبط به مباشرة، بما فيه الوحي. وبالتالي، فاللّٰه ليس فقط مبدأ الوحي، بل هو المؤلّف الوحيد للقرآن دون أيّ كائن سواه. إذًا، يستحيل على الإنسان أن يكون المؤلّف المشارك للّٰه في القرآن، ولا حتّى في أيّ كتاب سماويّ آخر قد سبقه، ولا في أيّ نبوءة وردت قبله؛ فاللّٰه هو صاحب السيادة لدرجة تلامس ظاهريًّا الاعتباطيّة[٧]. "اللّٰه يفعل ما يشاء"، كما "يخلق ما يشاء" (٣: ٤٠، ٤٧)، ومصير كلّ إنسان بيده: "ما من دآبّة إلّا هو أخذ بناصيتها" (١١: ٥٦). وبذا يتّضح المفهوم الإسلاميّ للوحي: يوجد كتاب في السماء، على اللوح المحفوظ[٨]، "أُمّ الكِتَب"[٩]؛ وقد أُنزل هذا الكتاب على مراحل من عند اللّٰه[١٠]، وأُعلن شفهيًّا لآدم، ونوح ولوط...، وبعضهم استلموه ودوّنوه، على مثال إبراهيم وموسى وداود وعيسى، وأخيرًا محمد، خاتمة الأنبياء[١١]؛ فالضمانة لمصداقيّة القرآن وسلامته المطلقة تقوم على رعاية اللّٰه المباشرة له، والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لم يكن للضمانة الإلهيّة النفوذ نفسه على الكتب السابقة التي أنزلت من السماء قبل القرآن على إبراهيم وموسى وداود وعيسى؟

أمّا بالنسبة إلى مضمون الوحي في الإسلام، فلا يعني اللّٰه الذي هو الصمد (١١٢: ٢)، إذ لا يكشف اللّٰه سوى عن رسوم وقرارات بعيدة عن جوهره وعن طبيعته الإلهيّة.

في المسيحيّة، كُتبت الأسفار المقدّسة بإلهام الروح القدس،؛ هو اللّٰه ألّفها، ولكنّه اختار لصياغتها أناسًا في كمال إمكاناتهم وقواهم، واستخدمهم لكي، بدفع منه فيهم وبواسطتهم، يدوّنوا كمؤلّفين حقيقيّين كلّ ما يريده وما يريده فقط[١٢]. إذًا، للمؤلّفين الملهمين دورٌ في صياغة الأفكار، التي لا تُملَى عليهم انطلاقًا من كتاب، ولكن هذا لا يمنع من أن يقولوا الحقيقة التي أراد اللّٰه أن تُدرَج في تلك الأسفار المقدّسة.

الكتاب المقدّس، بالنسبة إلى المسيحيّ، هو كلام اللّٰه المتجسّد، هو لا يأتيه مباشرة من السماء، بل هو مكتوب بإلهام من الروح القدس. إنّه ثمرة تعاون وثيق بين اللّٰه والبشر؛ فالعهد القديم، قبل أن يصبح نصوصًا مكتوبة، مرّ بحقبة طويلة إمتدّت إلى قرون من التقليد الشفهيّ، كذلك الأمر بالنسبة إلى نصوص العهد الجديد؛ فقد مرّت بالتقليد الرسوليّ الشفهيّ قبل أن تصير نصًّا مدوّنًا. أمّا الضمانة لليهوديّة والمسيحيّة فهي التقليد المعاش في إطار "العهد". وفي العهد الجديد، لم يكتب يسوع أيّ شيء، ولكنّه أقام الاثني عشر رسولاً وخلفاءهم، أيّ السلطة التعليميّة، ليميّزوا عمل الروح القدس في تدوين الكتابات المقدّسة. إنّه منطق القرب العلائقيّ للّٰه، ولهذا فاللّٰه هو المؤلّف الحقيقيّ للكتاب المقدّس، وفي الوقت عينه إنّ الكتّاب الملهمين هم المؤلّفون الحقيقيّون له، وهم ظلّوا يتمتّعون بحرّيتهم ومسؤوليّتهم ويحافظون على ثقافتهم المعاشة في بيئتهم وفي زمانهم. طبعًا هذا ما يخالف نظرة الإسلام إلى القرآن الذي أُنزل من السماء دون الحاجة إلى تقليد شفهيّ يسبقه.

في اليهوديّة وفي المسيحيّة، يكشف اللّٰه عن ذاته ويدخل في تاريخ الإنسان، ويُظهر حضوره فيه بأشكال شتّى، فيعطي قيمته للتاريخ، وهذا ما يعجز الإنسان عن فعله بمعزل عنه. وعليه، تصبح اليهوديّة والمسيحيّة ديانتَي التاريخ وليس فقط ديانتَين في التاريخ.

(7) Cf. François Jourdan, *id.*, 91.

(٨) رج ٨٠: ١٣–١٥؛ ٨٥: ٢٢.

(٩) رج ٣: ٧؛ ١٣: ٣٩؛ ٤٣: ٤؛ ٥٦: ٧٨.

(١٠) رج ٢: ٨٩؛ ١١: ١٤؛ ٤١: ٢؛ ٤٦: ٢؛ ٥٦: ٨٠.

(١١) رج ٧: ٢؛ ١٦: ١٠٢؛ ٢٠: ٢؛ ٢١: ١٠؛ ٢٩: ٤٦–٤٧؛ ٣٩: ١–٢؛ ٧٦: ٢٣.

(١٢) رج المجمع الفاتيكانيّ الثاني، **دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ**، المقطع ١١.

ففي الوحي المسيحيّ يكشف الله عن ذاته تدريجيًا طيلة قرون عديدة في تجانس ملحوظ للعقيدة، رغم رحب المسافات التاريخيّة والثقافيّة والاجتماعيّة، وينتهي بأن يعطي ذاته. لقد لفت انتباه البابا يوحنا بولس الثاني كيف أنّ القرآن يحدّ من الوحي الإلهيّ الوارد في العهدين القديم والجديد، وصُعق من عدم فهم ما قاله الله عن ذاته، بدايةً في العهد القديم، بواسطة الأنبياء، ومن ثمّ، وبطريقة نهائيّة، في العهد الجديد، بابنه الوحيد؛ وبالتالي، فإنّ كلّ هذا الغنى الذي يكشف به الله عن ذاته، والذي يشكّل تراث العهدَين القديم والجديد، قد تُرك جانبًا في الإسلام[١٣].

-إله الحبّ والعهد

في الكتاب المقدّس، تبدو واضحة علاقة الله بالإنسان، وهو يكلّمه من خلال الخلق[١٤]. ولكنّ الله يذهب أبعد من ذلك، ففي العهد القديم أقام عهده مع بني إسرائيل، وفي العهد الجديد أقامه مع جميع الشعوب. في مفهوم "العهد"، يعطي الله ذاته للإنسان دون أن يجعل هذا الأخير ينصهر فيه، لأنّ الانصهار هو عنف يُلغَى فيه أحد الفريقين، وهو مصادرة لحقوق الآخر، وبالتالي هو ينفي الحبّ الحقيقيّ. في المسيحيّة، الله هو المتسامي، ولكنّه في الوقت عينه الحبّ. يميّز المونسنيور بيار كلافري بين موقفين نموذجيَّين بين الإسلام والمسيحيّة: فالأوّل يُختصَر بـ "أعبدني، أنا الواحد"، والثاني يُشار إليه بـ "لا تخف، إنّي أحبّك"[١٥]. وفي هذا نجد صدى لكلام يسوع: "لا أدعوكم خدمًا بعد اليوم لأنّ الخادم لا يعلم ما يعمل سيّده؛ فقد دعوتكم أحبّائي لأنّي أطلعتكم على كلّ ما سمعته من أبي" (يو ١٥: ١٥).

في اليهوديّة والمسيحيّة، هناك فصل بين الخالق والمخلوقات، ولكنّ هذه المسافة العلائقيّة لا تهدف إلى إبعاد الفريقَين المتحابَّين، بل لتفسح المجال للحبّ الناضج؛ في كلامه مع يعقوب، يقول الربّ له: "قد صرتَ كريمًا في عينيّ ومجيدًا فإنّي أحببتك..." (أش ٤٣: ٤)؛ وبالمقابل فإن جوهر الشريعة يقوم على محبّة الربّ؛ فها هو يطلب من المؤمن به أن يحبّه: "أحبب الربّ بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قوّتك..." (تث ٦: ٥)؛ ويكمل قائلاً: "وأحبب قريبك حبّك لنفسك: أنا الربّ" (لا ١٩: ١٨)، وهذا ما سيؤكّده يسوع في العهد الجديد (مت ٢٢: ٣٧-٣٩). بهذا الكلام سيُظهر مدى القُرب بين الله والإنسان من خلال عهد الحبّ الذي سيحقّقه هو ذاته بموته وقيامته: "هذا هو دمي، دم العهد يُراق من أجل جماعة الناس لغفران الخطايا" (مت ٢٦: ٢٨). في العهد بين الله والإنسان، يبقى الفريقان متمايزَين؛ فالله يوفّر علاقة حبّ لتنمو مع الزمن؛ إنّه يأخذ المبادرة ليخلق الرفقة في مسيرته مع شعبه التي ستمتدّ لقرون. هذا العهد سيبدأ مع إبراهيم (تك ١٧)، وسيعزَّز مع موسى (خر ١٩-٢٤)، حتّى ولو أنّ بني إسرائيل يبدون أحيانًا "قساة الرقاب"[١٦]، ولكنّ الله يبقى متمسّكًا بوعوده وعهده على الرغم من بعض الأحداث المنافية ظاهريًّا كالذهاب إلى المنفى. أمّا البيان النموذجيّ للعهد فهو الآتي: "أكون لكم إلهًا وتكونون لي شعبًا"، وهو يتكرّر في أماكن عدّة[١٧]. إنّه تاريخ الخلاص المقدّس، حيث يفيض الله إلهامه على الشعب الذي غالبًا ما يبدو خائنًا، ومن خلاله يمكن لجميع الشعوب أن تتعرّف على ذاتها، إذ يغدو رمزًا لواقع البشريّة جمعاء.

(13) Cf. Jean Paul II, *id.*, 152.

(١٤) رج مز ١٩: ٢؛ حك ١٣: ١-٥؛ رو ١: ١٩-٢١.

(15) Cf. Pierre Claverie, *Petit traité de la rencontre et du dialogue*, Cerf, 2004, 48.

(١٦) رج خر ٣٢: ٩؛ تث ٩: ٦؛ ٣١: ٢٧؛ ٢ مل ١٧: ١٤؛ إر ٧: ٢٦؛ ١٧: ٢٣؛ با ٢: ٣٠؛ إلخ؛ كما نجد مرّات عدّة كيف يتمرّد الشعب على الربّ الإله في عد ٢٠: ٢٤؛ ٢٧: ١٤؛ تث ١: ٢٦؛ ٩: ٧، ٢٣، ٢٤؛ أش ٦٥: ٢؛ إر ٣: ١٤، ٢٢؛ ٥: ٢٣؛ حز ٢: ٣، ٨؛ نح ٩: ٢٦، ٢٩.

(١٧) رج إر ٧: ٢٣؛ ٢٤: ٧؛ ٣٠: ٢٢؛ ٣١: ٣٣؛ ٣٢: ٣٨؛ حز ١١: ٢٠؛ ١٤: ١١؛ ٣٦: ٢٨؛ ٣٧: ٢٣، ٢٧؛ با ٢: ٣٥؛ زك ٨: ٨.

بالعهد، يتعاون اللّٰه والإنسان في التاريخ الفعليّ والمشهود عليه، ويمكن للتاريخ أن يدعى مقدّسًا لأنّه حقًّا تاريخ الاثنين سويّة: تاريخ اللّٰه وتاريخ الإنسان.

تتوق ديناميّة العهد الإلهيّ–الإنسانيّ إلى التجسّد؛ فالعلاقة بين اللّٰه والإنسان المحقّقة طيلة قرون بالعهد تتبلور بالمسيح الذي هو في الوقت عينه إنسان كامل وإله كامل، وعليه، فالمسيح هو العهد المشخصن. إنّه تتمّة العهد ومحور التاريخ الإنسانيّ.

في الإسلام لا يوجد شعب مختار لأنّه لا يوجد عهد، وبالتالي فإنّ مفهوم "المسيح" فارغ من معناه. لا وجود للعهد في الإسلام، ولا يوجد أيّ تاريخ، كما أنّ اللّٰه لا يتدخّل البتّة في تاريخ الإنسان ليأخذه على عاتقه ويتحمّل وزر البشريّة، في حين أنّ اللّٰه في الكتاب المقدّس يدخل في تاريخ الإنسان ليقيم معه عهدًا يربطه به، ويطلب من الإنسان الأمانة للعهد.

–اللّٰه المخلّص

بالنسبة إلى مفهوم الخلاص، نراه يتطوّر ويتعمّق في الكتاب المقدّس؛ ففي العهد القديم يخلّص الربّ الشعب من العبوديّة في مصر ويهب ذاته بإعطاء اسمه (خر ٣: ١٤)، أمّا مجيء يسوع المخلّص[١٨]، فيفضي إلى أبعد من حيث يجرؤ الفكر الإنسانيّ أن يصل، إذ يغفر الخطايا[١٩]. في المسيح يسوع أعطى اللّٰه ذاته كلّيًا، لدرجة أنّه أصبح الخادم المتألّم حتّى الموت: "طُعِن بسبب معاصينا، وسُحِق بسبب آثامنا؛ نزل به العقاب من أجل سلامنا، وبجرحه شُفينا (...). بسبب معصية شعبي ضُرب حتّى الموت، فجُعل قبره مع الأشرار، وضريحه مع الأغنياء، مع أنّه لم يصنع عنفًا، ولم يوجد في فمه مكر، بسبب عناء نفسه (...) يبرّر عبدي البارّ الكثيرين، وهو يحتمل آثامهم (...). أُحصي مع العصاة، وهو حمل خطايا الكثيرين، وشفع في معاصيهم (أش ٥٣: ٥، ٨–٩، ١١–١٢).

موضوع الفداء غائب كلّيًا في الإسلام، ولذلك فهو "لا يوفّر أيّ مساحة للصليب ولا للقيامة (...)؛ فالإسلام والمسيحيّة يتباعدان كثيرًا، ليس فقط في علم اللاهوت، بل أيضًا في الأنتروبولوجيا[٢٠]. لا يقبل الإسلام أبدًا بعهد تصاعديّ مع جميع البشر حيث يقود اللّٰه التاريخ ويهب ذاته لهم ليخلّصهم.

–شخص يسوع

بالنسبة إلى الإسلام، كما هي الحال بالنسبة إلى المسيحيّة، وُلد يسوع بصورة عجائبيّة من مريم العذراء والأمّ في آنٍ معًا[٢١]، ويقرّ الإسلام بهذه الأعجوبة دون أن يعطيها أيّ معنى، في حين أنّ المسيحيّة تعي أنّها مرتبطة بعمق بهويّة يسوع الإله الكامل والإنسان الكامل، وخاصّة بألوهيّته التي يرفضها الإسلام بكلّ قواه. هذا وإنّ يسوع يُدعى في القرآن عيسى، ففي حين أنّ اسم يسوع يعني "الربّ يخلّص"، فإن اسم عيسى لا يرمز البتّة إلى خلاص اللّٰه. إذًا، يسوع ليس له الاسم ذاته في القرآن، ثمّ إنّ المسلمين ينكرون موته وقيامته، كذلك الأمر بالنسبة إلى الخلاص الذي حقّقه على الصليب، فنجد الرفض القاطع لسرّ اللّٰه الذي ظهر في المسيح، إبن اللّٰه، عبر سرّ الصليب الذي لا يمكننا أن نتجنّب الإيمان به[٢٢].

(١٨) إسم يسوع يعني "الربّ يخلّص"؛ رج مت ١: ٢١؛ لو ١: ٣١، ٦٩؛ ٢: ١١، ٢١؛ ١٩: ١٠؛ يو ٣: ١٧؛ ٤: ٤٢؛ ١٠: ٩؛ ١٢: ٤٧.

(١٩) رج مت ٩: ٢–٧؛

(20) Cf. Jean Paul II, *id.*, 152.

(٢٠) هي التي قيل فيها: "والتي أحصنَت فرجها فنفخنا فيها من روحنا" (٢١: ٩١).

(21) Cf. Claude Geffré, *La croix et le croissant*, Éditions de Paris, 1998, 80.

(٢٢) نأخذ بعض الأمثلة: فهو يتكلّم منذ مولده "إذ قال اللّٰه يَعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى وَلدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلّم الناس في المهد وكهلاً..." (٥: ١١٠)، وأن يجعل العصافير من الطين تطير "إنّي أخلق لكم من الطّين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا وأُبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى..." (٣: ٤٩) وغيره.

بالمقابل نجد بعض التلميحات القرآنيّة إلى العجائب التي اجترحها يسوع[٢٣]، وبعض الألقاب التي أعطيت له[٢٤]. لقد أعطى عيسى الإنجيل الذي نزل بشكل إملاء سماويّة: "وقفّينا على إثرهم بعيسى ابن مريم مصدّقًا لما بين يديه من التورَة وءَاتينَهُ الإنجيل فيه هدى ونور" (٥: ٤٦)؛ فالمسيحيّون يقرأون هذه الأعاجيب في الأناجيل المنحولة كإنجيل يعقوب، وإنجيل متى المنحول.

يرى المسيحيّون في يسوع "ابن الله"، وهم معتادون على هذه العبارة التي يجدونها منذ بداية المسيحيّة[٢٥]؛ ويعتبر المسلمون لقب "ابن الله" وكأنّه إله ثانٍ مولود من الإله الأوّل، ولادة جسديّة، وهذا بعيد جدًّا عن الإيمان المسيحيّ، لا بل نجد في القرآن نوعًا من السخرية في موضوع الثالوث[٢٦]: "وإذ قال الله يَعيسى ابن مريم، أنتَ قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلَـهين من دون الله..." (٥: ١١٦)، وهذا ما يذكّر بزواجات وولادات الآلهة الوثنيّة، ويؤدّي إلى وجود ثلاثة آلهة[٢٧]. وبالفعل، يحتجّ القرآن على ذلك، ويجعل من المسيحيّين كفّارًا كما نقرأ: "لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم" (٥: ١٧، ٧٢). والحال أنّ المسيحيّين لا يقولون ما ورد في هاتين الآيتين، بل يعبّرون عن إيمانهم بـ "أنّ المسيح هو إبن الله"، فينتقد القرآن هذه العبارة إذ "ما كان لله أن يتّخذ من ولد سبحنه"[٢٨]. وعندما يتكلّم يسوع عن نفسه أنّه "ابن الله"[٢٩]، والمسيحيّون يؤمنون ببنوّته الإلهيّة، فهم لا يقصدون أنّ الله يلد إلهًا صغيرًا بالقرب منه، ولا يعنون بقولهم إنّ بنوّة المسيح لله الآب تماثل بنوّة الفرعون لإله ما، ولا أيضًا ما يقصده الشعب اليهوديّ بقوله إنّه ابن الله (خر ٤: ٢٢)، ولا بالمعنى العامّ حيث إنّ جميع البشر هم أبناء الله الخالق. غالبًا ما تعني كلمة "الله" في العهد الجديد "الآب"؛ "فإنّ الله أحبّ العالم حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد لكي لا يهلك كلّ مَن يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة؛ فإنّ الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلّص به العالم" (يو ٣: ١٦–١٧)؛ فعبارة "ابن الله" التي يطبّقها المسيحيّون على شخص يسوع تعني "ابن الآب"، مثلاً: "يا أبتِ، مجّد ابنك" (يو ١٧: ١). ويمكننا أن نحدّد مفهوم "ابن الآب" بـ "في قلب الله الواحد"[٣٠]، إنّها البنوّة الداخليّة لحياة الله؛ ففي حميميّة الألوهة الواحدة، أي الله، يسوع هو ابن الآب منذ الأزل. ولهذا يقول يسوع: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، وهذا ما جعل اليهود يهدّدونه بالرجم حتّى الموت: "لا نرجمك للعمل الحسن، بل للتجديف، لأنّك، وأنت إنسان، تجعل نفسك الله" (يو ١٠: ٣٣).

إذًا، لا يطابق يسوع المسيحيّ عيسى المسلم.

خاتمة

لقد أصبح واضحًا أنّ الكلام بأنّ إله المسلمين وإله المسيحيّين هو نفسه يصحّ جزئيًا، أيّ في ما يخصّ

(٢٣) على سبيل المثال نذكر: "إذ قالت الملئكة يمريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه إسمه المسيح عيسى ابن مريم..." (٣: ٤٥)؛ "إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، ألقَها إلى مريم وروحٌ منه..." (٤: ١٧١)؛ "ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل..." (٥: ٧٥).

(٢٤) يفتتح الإنجيليّ مرقس إنجيله بهذه العبارة: "بدء بشارة يسوع المسيح ابن الله" (مر ١: ١)؛ ويتكلّم بولس الرسول مع أهل تسالونيقي قائلاً: "وتنتظرون أن يأتي من السماوات ابنه الذي أقامه من بين الأموات، ألا وهو يسوع الذي ينجّينا من الغضب الآتي" (١ تس ١: ١٠).

(25) Cf. François Jourdan, *id.*, 40.

(٢٦) "يأهل الكتب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلّا الحقّ إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقها إلى مريم وروح منه فئامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلثة انتهوا خيرا لكم إنّما الله إله وحد سبحنه أن يكون له ولد له..." (٤: ١٧١).

(٢٧) رج ١٩: ٣٥؛ ١٠: ٦٨؛ ٢٥: ٢.

(٢٨) رج مت ١١: ٢٥–٢٧؛ لو ٢: ٤٨–٤٩؛ ٢٢: ٧٠؛ ٢٣: ٤٦؛ يو ٣: ١٨؛ ٥: ١٩–٢٦؛ ٦: ٤٠؛ ١٤: ١٣؛ ١٧: ١.

(29) Cf. François Jourdan, *id.*,40.

وحدته، دون أن نعنيه هو بذاته.

ففي الإسلام يجمل التركيز على الإله المتسامي، إذ كم وكم من البشر الذين يدّعون المعرفة يحاولون أن يجعلوا أنفسهم آلهة ويحاولون أخذ مكان الخالق، وكم وكم من الذين جحدوا إيمانهم يخلقون آلهة على قدر نظرتهم ويصبحون عبيدًا لها؛ من ناحية ثانية، يحلو التأمّل باللّٰه العالِم بكلّ شيء، لأنّ الإنسان مهما علا من شأنه، ومهما زاد من معرفته، فهو سيظلّ مكتنفًا بالأسرار، كما إنّ فكرة الاستسلام للخالق لهي من أسمى درجات التقوى لدى المؤمن.

أمّا في المسيحيّة فاللّٰه هو الواحد–الثالوث الذي ليس من تأليف الكنيسة، بل هو ذاته كشف عن جوهره الثالوثيّ عبر تاريخ الخلاص، وحين يعجز الفكر الإنسانيّ عن فهم سرّه يجيبنا يوحنّا أنّ الذي يحبّ يرفض أن يبقى وحيدًا، ولذلك فهو ثالوث، أي هو محبّة (١ يو ٤: ١٦)؛ وعليه، فالمسيحيّة تؤمن بإله واحد وليس بإله وحيد، هي تؤمن بوحدانيّة اللّٰه وليس بوحدته. ثمّ، إنّ اللّٰه الخالق يخلق الإنسان على صورته كمثاله، ويعطيه السلطان ليشاركه في الخلق، إنّه الأب الذي يريد أن ينمو أبناؤه ليصبحوا "على مقدار قامته"، واللّٰه هو الموحي بمضمون الكتاب المقدّس، ولكنّه يترك المجال للإنسان ليشاركه في صياغة الأفكار؛ إنّه الإله الذي يثق بالإنسان، صنعة يديه، ويجعله ناطقًا باسمه، كما إنّه إله الحبّ والعهد، الإله الذي يتنازل ليقيم علاقة على قدم المساواة بينه وبين الإنسان، وهو الإله المتجسّد بالمسيح يسوع الذي أفرغ ذاته على الصعيد الإلهيّ، لأنّه، كما يقول القدّيس كيرلّس الأورشليميّ: "لو كان التجسّد مظهرًا لكان الخلاص مظهرًا أيضًا"، وهو الفادي الذي أخلى ذاته على المستوى الإنسانيّ، "فأخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا" حبًّا بنا، وأخيرًا، هو الذي سفك دمه على صليب الفداء لأنّه، حسب قوله: "ليس لأحد حبٌّ أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبّائه" (يو ١٥: ١٣).

المراجع

Claverie Pierre, *Petit traité de la rencontre et du dialogue*, Cerf, 2004.

Geffré Claude, *La croix et le croissant*, Éditions de Paris, 1998.

Jean Paul II, *Entrez dans l'espérance*, Plon/Mame, 1994.

Jourdan François, *Dieu des chrétiens*, *Dieu des musulmans*, *des repères pour comprendre*, Éditions de l'Oeuvre, 2008.

Laurent Annie, *Vivre avec l'Islam*?, Saint Paul, 1996.

Varillon François, *Un chrétien devant les grandes religions*, Bayard/Centurion, 1995.